

# جوانب إنسانية في شعر المرءة الجبوتية

بقلم عزيزة مريدت

ان ينعث بلفظة الإنسانية تلتخص في العقل وخصائصه من الروية والتميز، وان إنسانية الإنسان تتحقق به وبخصائصه ، ويتبع ذلك تزويد العقل بخصائص العلوم والمعارف ، وإطالة الروية ، وأعمال الفكرة فيها ، واختيار الأفضل والامثل ، حتى يصل الإنسان الى أعلى مرتبة في سلم الإنسانية .

ولا بد للإنسان كذلك من صفات نفسية تتبع هذه وتكملها ، وقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين ان لفظ الإنسان « يطلق على معنيين : عام وخاص ، والاول منهما يقال لمن عرف الحق فاعتقده،والخير فعمله بحسب وسعه ، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً ، وبحسب تحصيله يستحق الإنسانية ، وهي تعاطي الفعل المختص بالإنسان ، فيقال فلان أكثر إنسانية .. » .

بهذين المعنيين العقلي والنفسي اللذين يكمل احدهما الآخر، تكون قد وضعنا يدنا على الاسس العامة التي جعلها بعض كتابنا ومفكرنا قديماً وحديثاً قواماً للإنسانية ، او هي قوام الإنسان الكامل السامي .

ومما لا ريب فيه ان كلمة الإنسانية لم تنتشر الا في عصرنا الحديث حين بدأ اتصالنا بالغرب ، فاقتبسنا منه ، وترجمنا علومه وفنونه، فكان ان وقعنا في اللغة الفرنسية على لفظتين تمتان الى الإنسانية بصلابة وثيقة هما : Humanisme و Humanité وكان اللاتينيون اول من استعمل هذه الكلمة للدلالة على الدراسات التي تدور حول الإنسان، وكانت كلمة الإنسانيين تعني في القرن السادس عشر : الإبداء الذين يقفون انفسهم على دراسة حضارة العصور القديمة ، والعناية بالثقافة والمؤلفات اليونانية اللاتينية وكانوا مولعين باللغة الجميلة ، والتأنق في الصياغة والتعبير .

ومن بين المعاني الكثيرة التي اشار اليها ( لا لاند ) في معجمه، حول كلمة الإنسانية ، انها ( الشفقة ، او احساس الإنسان العفوي تجاهه الاخرين المشابهين له ) . فهل هذه المعاني التي عرضنا لها كانت مدار الشعر الإنساني ، ام ان الى جانبها معاني إنسانية اخرى ؟

لو تطلعتنا بابصارنا الى ما وراء البحار ، لرأينا اوتارا إنسانية في المهجر الشمالي ، تبعث منها الحان تعزف لنا موسيقى المحبة والحنان، والرحمة والسلام ، واذا بتعاليم الانجيل تسري في ثناياها متأثرة بالسيد المسيح الذي يقول في بعض نصائحه : « احبوا ، ارحموا ، من يحب يعطف ويرحم من اعمال قلبه ، ويندفع ليضمده جراح الإنسانية الدامية . من يحب يبذل بسخاء ، ولو كان البذل من ذات روحه ، من يحب يصبح اكثر من انسان ، يصبح ملك الرحمة .. » ، لقد سمعنا هذه التعاليم وغيرها تتردد على اقلام ( جبران ونصيمة وابي ماضي وعريضة وغيرهم)، ولعل للمحيط المادي الالي الصاحب الذي عاشوا فيه شأنا كبيرا في اتجاههم الإنساني هذا وبما حملوه من مآثر روحية معنوية . وخير ما يمثل لنا إنسانية المهجرين الشماليين مناجاة ( ايليا ابي ماضي ) لرفيقه الإنسان بقوله :

يا رفيقي انا لولا انت ما وقعت لحننا

كنت في سري لما كنت وحدي اتفنى ..

وحتى في القفر حين هام على وجهه تطلعا من اوزار الناس، وتوقا الى حياة الغاب الحرة النائية ، كان يحس بوجود البشر جميعهم معه يماشونه ويسايرونه :

ليس من السهل التوصل او الركون الى تعريف واحد للإنسانية، او مفهوم دقيق ثابت يجمع صفاتها كلها ، ويحيط بمضمونها الواسع ، وجوانبها المتعددة . والبحث في الإنسانية شائك محفوف بالصعوبات بقدر ما هو شيق وطريف ، لان هذه الكلمة مشتقة في الاصل من الإنسان، ومفهوم الإنسان ذلك المجهول - كما يقول اليكسيس كاريل - واسمع شامل يصعب تحديده . فحين نتكلم عن الإنسانية ، فاننا نتكلم على كل ما يمت بصلة الى الإنسان . هذا ما يبدو للباحث من النظرة الاولى حسب المفهوم العام لهذه اللفظة ، ولكن المدقق فيها يدرك انها مصدر صناعي اصطلح عليه حديثا للدلالة على ما يقابله عند الغربيين من لفظة Humanité ، وتجدر الإشارة بنا هنا الى ان معاجمنا القديمة من الصحاح الى لسان العرب واسباس البلاغة ، والقاموس المحيط، وغيرها لم تذكر في موادها التي تقرب من الثمانين الفا لفظ الإنسانية واكثر من هذا فقد اختلف اصحابها في شرح كلمة الإنسان واصل اشتقاقها . ويخيل لنا ان المعجم الاول الذي ادخل هذه اللفظة في لغتنا، وفسرها هو ( محيط المحيط ) للمعلم بطرس البستاني ، وهذا يعني ان عمر اللفظة في لغتنا لا يزيد على مئة وخمسين سنة . ولتته بعض القواميس الاخرى التي لم تزد على ما قاله البستاني في تفسير هذه الكلمة، فهي تدل على ( ما اخص به الإنسان ، واكثر استعمالها لمحامد الاخلاق ومحاسن النفس من نحو الجود وكرم الاخلاق ) .

اما كتب الادب العربي القديمة ، فلا نظن انها عرضت لهذه الكلمة، لكن ( ابا حيان التوحيدي ) اتي على ذكرها في احدي مقابساته . كما ان شغفه ببعض الامور الفكرية والفلسفية جعله يوجه (لابي علي مسكويه) سوألا يستفهم فيه عن حقيقة النفس والإنسان وعلاقتها ببعضهما فيقول « ما ملتس النفس في هذا العالم ؟ ما نسبتها الى الإنسان ؟ وهل لها به قوام ؟ او له بها قوام ؟ وان كان هذا فعلى اي وجه هو ؟ واوسع من هذا الفضاء حديث الإنسان ، فان الإنسان قد اشكل عليه الإنسان » .

وقد جاء في رد ( مسكويه ) قوله : « فاما حديث الإنسان الذي شكوت طوله ، وحكيت من الكلام المتردد الذي لم يفدك طائلا ، فالذي ينبغي ان تعتمد عليه هو ان هذه اللفظة موضوعة على الشيء المركب من نفس ناطقة وجسم طبيعي » ويستطرد مسكويه بعد ذلك ليضرب امثلة حية ، مقربا بها معنى الشيء المركب ، ولكنه يعود الى تعريف صفات الإنسان في موضع اخر فيقول : « ان الإنسان من حيث هو حيوان، قد شارك البهائم في غرض الحيوانية وكمالها .. الا ان الحيوانية لا لم تكن صورته الخاصة به ، الميزة له عن غيره ، لم تصدر هذه الاشياء منه على اتم احوالها . »

وندرج من عبارة مسكويه هذه انه يجعل الإنسان يشارك الحيوان في صفات الحيوانية ، ولكن له صفات خاصة به تميزه عن الحيوان ، يكون جديراً معها بصفة الإنسانية ، اذ يقول بعد قليل : « .. ولما كانت صورته الخاصة به التي ميزته عن غيره هو العقل وخصائصه من التمييز والزوية ، وجب ان تكون إنسانيته في هذه الاشياء ، فكل من كان حظه من هذه الخصائص اكثر ، كان اكثر إنسانية ، كما ان الاشياء التي عدناها كلما كان منها حظه من صورته الخاصة به اكثر ، كان فضله في اشكاله اظهر . »

نفهم من هذا ان الصفات المميزة للإنسانية والتي يستحق معها

خلت اني في القفر اصبحت وحدي فاذا الناس كلهم في ثيابي  
اما شعراء المهجر الجنوبي فلقد عبروا عن نزعتهم الانسانية، حينما  
استولى على نفوسهم الشعور بالسأم القاتل ، والقنوط المحطم ، واخنت  
على نفوسهم منه ازمة روحية ما لبثت ان امتلات بالحقد والثورة على  
القوة المادية التي تهدد بالحرب ، وتلوح بها كلما هدت مصالح اصحابها  
في البلاد الاخرى . ووجد هؤلاء الشعراء - بما انطوت عليه تقاليدهم  
الشرقية ، وتراثهم العربي من مبادئ روحية سامية ، ان بوسعهم حل  
مغاليق هذه الازمة ، فراحوا ينشرون السعادة في العالم المادي، ويعملون  
على اشاعة المحبة في النفوس ، ويبذرون فيها المثل الانسانية الداعية  
الى العدل والحق والخير والسلام .

ولقد قام بين من كتبوا عن ادب المهجر شبه اجماع على ان الشاعر  
( شفيق معلوف ) من ابرز الشعراء الانسانيين في المهجر الجنوبي ، فلا  
بد اذن من ان نبدأ بتحديد مفهوم الانسانية عنده . ولقد ذكر في احدي  
رسائله ان مفهومه لها يتلخص في « شعور الانسان مع الانسان ، بكل ما  
في هذا التعبير من شمول » وينتهي الى ابعاد من ذلك فيقول : ( هو  
ايضا شعور الانسان مع الحيوان والنبات ، وحيانا شعوره بدافع اللفة  
مع الجماد ، فهذا العطف الذي يدفع الجنس الى الحدب على جنسه ،  
يتعدى خلقه غالبا الا في الانسان ) .

وشبيه بهذا المعنى ما ذكره الشاعر ( جورج صيدح ) عن الانسانية  
فقال : « لقد عرفتها عن طريق ضميري ووجداني ، واكتفيت بذلك، انها  
في البدء شعور غريزي بقرابة تربطي بني الانسان ، وبتضامن مع جميع  
خلق الله .. وهي بعد ذلك عمل ايجابي ، وسعي صادق لخدمة البشرية  
في حدود مواهبي وامكانياتي » .

وهو اذن يضيف الى الشعور بالتعاطف العفوي بين ابناء البشرية  
عملا اراديا ايجابيا يسهم فيه كل امرئ بخدمة الاخرين قدر استطاعته .  
وثمة مفهوم اخر للانسانية عند الشاعر ( نعمة قازان ) من مفهومه  
للادب عامة فهو يرى ان الادب ( رسالة قبل كل شيء تطهر النفوس من  
اوضاعها ، وتوجهها نحو انسانية مثلى ، لتصل الى غايتها من الكمال  
حين تصل بمصدرها الاعظم ( الله ) ، وعلى هذا فالادب هو كل ما يخفف  
من لوعة ويجفف من دمة ، ويشدد من همة ، ويولد من بهجة ، وكل ما  
عدها ليس ادبا ولا قيمة له :

هو في النفس ان تصحي كثيرا وكثيرا حتى تصير الها  
كاملا في محبة الابدنا

واخيرا فان للاستاذ ( نظير زيتون ) مفهومها جامعا لكل عناصر  
الانسانية اذ يقول : « فالانسانية عندي هي الشعور الكلي العميق المطلق  
بان الانسان واحد على اختلاف الالوان والسلالات والاطوان ، وبانه اكرم  
المخلوقات واشرفها واعظمها واسماها ، وبان اعماله واقواله واهدافه ،  
يجب ان تنبع من كرامته وشرفه وعظمته وسموه ، وهي الصفات التي  
تتمثل في العطاء بدا وقلبا وفكرا ، واصلاح بناء وتنويرا وتحريريا والابداع  
روحا وخلقيا وعملا ، والبطولة مروءة واحسانا وتساميا ، الى جانب الحب  
المطلق مطلبا ومنهجا واماريا ، والجمال نفسا وموردا ومنهجا ، ونشدان  
الكمال والاعتصام بالحق الذي هو قيس من نور الله ، وهذا يعني ان  
الانسانية بجوهرها وهدفها هي اسعاد النفس ، وتلبية نداءها باسعاد  
« الاخرين » .

ولا ريب في ان هذا التعريف الجامع المانع لمفهوم الانسانية يجب  
ما قبله من المفاهيم اذ يشملها كلها ، ويفضلها شرحا وتفصيلا .  
ولو القينا بسمنا قليلا الى ما يدور في لهجتنا العامية من الفاظ  
تدل على معنى الانسانية لاسترعى انتباهنا ان العامة استعملوا لفظة  
( الادمية ) فقالوا : فلان ادمي . وجموعها على اوادم ، للدلالة على محامد  
الاخلاق ، ومحاسن النفس ، وادم يمثل الانسان الاول الذي سجد له  
الملائكة بامر ربهم ، وهذا يعني ان العامة استدرکوا ما فات لفويننا  
القدماى فاصابوا .

ونحب ان نضيف هنا ان نظرة حانية على حيوان اعجم يعتدى  
عليه ، او طائر يسقط برصاص صياد ، او وردة ذابلة التي بها على قارعة

الطريق ، او على حشرة محتقرة ، كنظرة ( ابي ماضي ) الى ( الفراشة  
المحتضرة ) ، ان نظرة كهذه هي انسانية ، وانسانية عميقة ، والذي  
يعمق معناها - بالطبع - انما هو قلم الفنان الاصيل الذي يستطيع ان  
يسبغ عليها الحياة والجمال ، فيوحى اليها بمعانيها الانسانية النبيلة .  
على ضوء هذه المفاهيم الانسانية المختلفة نلقب داوين شعراء  
المهجر الجنوبي ، فتطالعنا من ثناياها ابيات متفرقات ، ان لم تحسو  
تعريفا جامعا للانسانية ، فان كلامها يلقى اليها بشعاع من طيفها : من  
قلب ( الشاعر القروي ) المحب للعالم كله ، كما هو محب لوطنه وامته ،  
ينبعث اليها هذا الشعاع من المحبة اذ يقول :

لي قلب يسع الكون فلا تسألوني ما الذي تهوى ومن  
كل شيء فيه شيء حسن وانا اهوى من الشيء الحسن  
ومن وجدان الشاعر ( شفيق معلوف ) ينساب اليها شعاع اخر  
هو شعاع الاخوة والحنان والتعاطف مع جميع افراد البشرية اذ يقول :  
كن بسمة بقم الضعيف ولا تزد تالله اتراحا على اتراحه  
ما ضر ان يحظى اخوك بحقه فترى فلاحك ناجزا بفلاحه  
انحق بطلان الوجود ولا نرى اشباهه تحنو على اشباهه  
ضرب الشعوب قونها بضعيفها كالطير تدبجه بريش جناحه  
ولون اخر يشرق علينا من قول الشاعر ( نمر سمعان ) فيضيء لنا  
الطريق الى البذل ، والاحسان :

لما رأيت يد الاحسان تمسحها ايقنت اني رأيت الله انسانا  
ويضيء في طيف الانسانية شعاع جديد حينما يعلو صوت الشاعر  
( جورج صوايا ) صارخا بالناس ، منيها للعدل والحق والعلم قائلا :  
حقنوا العدل ايها الناس في الناس وبثوا العفاف في كل لب  
علموا الحق انشروه رضيعا للسبيل السوي يهدي الجموعا  
عمموا العلم واركبوه جناح الصدق يجتث من الانام الرذيلة  
وهكذا كما تجتمع ألوان الطيف وتتحد ، فتكون قيسا واحدا من  
النور ، كذلك فان الالوان المتعددة ، والاشعة المختلفة قد ضمت الى  
بعضها ، فكونت لنا طيفا انسانيا واحدا ، فما هي اذن موضوعات هذه  
النزعة الانسانية ؟ وهل كان لها من التعدد والتنوع ما يجعلها جديرة  
بان تضم الى بعضها فتؤلف اتجاهها واضحا ؟

مما لا ريب فيه ان هناك قيما انسانية مشتركة ، وفضائل عامة ،  
يؤمن بها البشر على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم واجناسهم ، تشيع في  
نفوسهم شعورا بالتوافق والتعاطف بين افراد العالم كله ، كالحبة والاخاء  
والخير ، والبذل ، والوفاء ، وعواطف الامومة والابوة ، والثورة على  
التكبر والظلم ، والمطالبة بالحق والعدل وما الى ذلك من فضائل نفسية  
اجتماعية . ونحن على شبه اليقين انه ما من شاعر من شعراء المهجر  
الجنوبي لم تدفعه ربة شعره الى التفني ببعض هذه القيم الانسانية  
او بمعظمها هذا بالاضافة الى ان بعضهم صور اصحاب المهن الصغيرة  
التي تبدو محتقرة لدى بعض الناس ، ولكنها تعتبر في نظرهم هم مهنا  
انسانية نافعة ، لا تقل عن المهن الكبيرة ، وعرض بعضهم آراءه ، فسوي  
فلسفة الحياة ، واطلق لتأملاته العنان ، فيها ، فرأى ان الحياة مملوءة  
بالشور والاثام ، وان الانسان فيها شرير بطبعه ، ودعا اخرون الى الاقبال  
على الحياة والاستمتاع بها . والمدقق في هذه الموضوعات كلها يستطيع  
ان يردها الى اتجاهين اثنين :

اولهما : تصوير الفضائل الانسانية ، والتفني بها تفنيا يصح ان  
نسميه رومانسيا لانهم لم يتحدثوا عنها على انها مذهب من المذاهب  
المقننة ، او عقيدة من العقائد المتبلورة ، وانما صوروها تصويرا عاطفيا  
بؤثرا ، وحببوا الناس بها لانها غاية انسانية ، ومطلب عام ، ولانها في  
ذاتها تمثل قيمة جمالية ، سعد بها البشر جميعا .

وثانيهما : دعوة شبه عقائدية ، مبنية على اسس انسانية ، وحقوق  
بشرية عامة لا بد للناس كلهم من التمتع بها على اختلاف اوطانهم ومذاهبهم:  
كالحق والحرية والعدالة والمساواة والسلام . ويضاف الى هذه الدعوة  
تمجيد القيمة الانسانية ، وتقويم الانسان على قدر ما تتمثل فيه هذه  
الفضائل بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي .

واقصر هنا على التنويه بالاتجاه الاول فقط .

\*\*\*

كانت المحبة في الاتجاه الاول الرومانسي ، اولى الفضائل الانسانية التي نادى بها شعراء المهجر الجنوبي ، المحبة بمعناها الواسع الشامل ، المحبة للناس اجمعين ، فيها وحدها سيقضى على الجريمة في الارض ، وسيقلب الشقاء سعادة ، ويعم الخير والفضيلة العالم بأسره . يقول الشاعر القروي :

هو الحب حتى ليس في الارض مجرم ولا مدمع يجري عليها ولا دم وحتى كان القلب في خفقانه يود به نطقا كما نطق الفم فقل للذي لم يعرف الحب قلبه ولم يسلف الا شاكيا يتالم ايا صاحبي ان العداء جهنم وما فيه من عز لتخلو جهنم ويا صاحبي ان التجهم يقتضي من الجهد ما لا يقتضيه التسم وهذا هو الشاعر ( نعمة قازان ) الذي وقف معظم شعره على النزعة الانسانية ، وعلى الدعوة الى المحبة ، خاصة ، اذ لا يؤمن الا بالحب دينا يقول :

الا كل دين ما خلا الحب بدعة وكل اجتهاد ما عداه قانون واكثر من هذا انه يدعو الى دين الحب الذي يبارك السلاطين البغضيين ، ويتسع للاعداء والمسيحين - كما جاء في الانجيل - الحب الذي هو خبز الانسان وخمره :

على رسلكم يا قوم ما انا مؤمن بغير انفجار الحب بين الجوانب فلو لم تقم فينا المحبة لم نمت وهيهات ان نحيا بغير التحاب لقد قام بالحب المسيح من الردى وتمم على دين المسيح العجائبي هو الخير لا يحيا به غير آكل هو الخمر لم يسكر بها غير شارب ويتلفت الشاعر ( القروي ) حوله ، فلا يرى في الناس الا وجوها كالحة عابسة دأبها الظلم ، فيخاطب اصحابها ويدعوهم الى الحب قائلا : يا كل من فوق سطح الارض قاطبة لولاكم لم يكن في ارضكم باس لا تظلموا تسعدوا فالظلم تجربة يدعو اليها عدو الناس خناس ان السعادة لو سويتها بشرا فالحب والعدل منها القلب والراس شريعة الحب في الدنيا توحدكم مهما تعدد اديان واجناس وتقتضي هذه الشريعة اسعاد الآخرين ، وتضميد جراح البائسين ، والاخذ بيد الضعفاء ، والاحسان للمعوزين ، والبعد عن الشرور ، واشاعة التفاؤل والرضا في نفوس المحزونين والمتشائمين ، وهذا كله لا ينبع الا من صدر حنون اشرب معنى العاطفة والرحمة ومن قلب عطوف كبير ، لذلك يقول الشاعر القروي :

اجعل الارض حيث كنت جنانا ان تكن قد هجرت منها جنانا صفرت نفس حاصر النفس في اشبار ارض يعدها اوطانا بسمة تظهر الفقير غنيا دمة تمسخ الشجاع جبانا فتلق الحياة بالبشر فالعيش نعيم ان لم تكن شيطانا ويلخص لنا قيمة الانسان التي تتجلى في انسانيته حين يقول : كن اله النصار انك عندي لست شيئا ما لم تكن انسانا اشبع العقل حكمة واختيارا واملا القلب رحمة وحنانا ولسك الارض والسماء وهبل يدعى فقيرا من يملك الاكوانا ؟ وليس بخاف ما في هذه القصيدة من دعوة الى بث التفاؤل في النفوس تشبه الى حد كبير ما بثه ( ايليا ابو ماضي ) في قصائده المدينة ، مثل ( ابتسم ، وكم تستكي ، كن بلسما ، عش للجمال ، المساء ) وغيرها .

واجمل دعوة للبنل والجود والسخاء صاغ كلماتها كذلك الشاعر ( القروي ) متخذاً من حبة القمح الصغيرة مثلا رائعا يقتدي به الانسان ، فابعد معنى قلما يخطر على بال :

من حبة القمح اتخذ مثل الندى يا من قبضت عن الندى يمناكا هي حبة اعطتك عشر سنابل لتجود انت بحبة لسواكا حلمت بان ستميش في خبز القرى فترافقت للموت نحو رحاكا وكانما الشق الذي في وسطها لك قائل : نصفي يخص احاكا ولقد ذاق معظم شعراء المهجر مرارة الفقر والحرمان ، وعانوا من

الوان المشقة والجوع ما عانوا ، فجعلهم هذا يدعون الى البنل ، حتى اصبح مادة غزيرة في شعرهم الانساني ، تنوعت اساليب الدعوة اليه ، واختلفت طرائق التعبير عنه ، فهذا الشاعر ( نمر سمعان ) يصور شعوره في قصيدة القاها في اليوبيل الذهبي ( للميثم السوري ) فيجعل الله سبحانه ممثلا بانسان محسن :

لما رايت يد الاحسان تمسحها ابقت اني رايت الله انسانا قل للمدل بجاه لا تزخرفه الا باطيل اشكالا والوانسا الفقر في ان تراك العين مرتدينا ثوب الفن ويراك القلب عربانا ان الفضيلة لا غاضت مناهلها تفيض بالحب انهارا وغدرانا في وسع كل امرىء ارواء غلته منها كيف تعيش العمر ظمنا ومن القوائد التي تستحق منا وقفة متأنية في هذا الباب ، قصيدة شاعر العاصي ( ميشيل مفربي ) التي يخاطب فيها الانسان التباهي بجوده ، الزدهي بكرمه ، مقارنا احسانه هذا باحسان الطبيعة الخيرة فيقول :

ان رايت الشمس قد اقلت على الارض الشعاعا تبعت الدف فتحييها بقاعا بقاعا وتبث النور في الكون فتجاوه شعاعا ان رايت الشمس لا تفخر بما انت تجود ان احسانك لا يبلغ احسان الوجود وهالك مثلا اخر ، الفيت ، انه يروي الزرع والضرع ، فيمنح الخيرات ، وينشر الخصب فيحيي الارض اوات :

ان رايت الفيت يروي الارض في تهطاله وحياة الزرع والضرع على اذباله والريبع الفض والصفى جنسى افضاله ان رايت الفيت لا تفخر بما انت تجود ان احسانك لا يبلغ احسان الوجود وامنا الارض ، انها تبدي لنا في كل حين الوانا من الجمال ، واي فضل يعدل فضلها حينما تتلقى الجيفة العفنة ، فتردها زهرا وثمرها ونتاجا طيبا :

ان رايت الارض تبدي من جمال صورها تاخذ الاقذار والتتن وتطسي الزهرا وترد الجيفة العمياء حيا مبصرا ان رايت الارض لا تفخر بما انت تجود ان احسانك قد قارب احسان الوجود

تلك هي بعض الفضائل الرئيسية ، والمثل الانسانية التي تفنى بها شعراء المهجر الجنوبي ، ودعوا الى التحلي بها ليسود المجتمع الانساني الخير واليمن والسعادة ، بيد ان الى جانبها فضائل اخرى متفرقة ، لم يكن الحاح الشعراء عليها كالحاحهم على ما سبقها . ففي قصيدة ( المتكبرون ) يرى ( الشاعر القروي ) ان الناس متساوون في خلقهم لم تكشف لبعضهم حجب الغيب واسرار الكون دون غيرهم ، وقد تساوا كذلك في الحياة والموت ، وان قيمة الانسان بما يقدمه من نفع لابناء البشرية كلها ، والا فعلام يصغر المتكبرون خدودهم للناس ؟ هل عرفوا حقيقة ما :

وهل كشفوا من الاكوان سرا وهل عرفوا البداءة والختاما وهل جيلوا جسامهم بخمر وهل نحتوا من العاج العظاما وهل يغدون تحت الارض تبرا ويمسي غيرهم فيها رغاما اليس قوامهم ماء وطينا كما خلق الاله لنا قواما فان كانوا كغيرهم اناما علام اذن قد احتقروا الاناما وان لم ينفعوا الدنيا بشيء اذن فعلام منتهم علاما ؟ اسئلة كثيرة تخطر ببال الشاعر ، يهدف من رائها الى تحطيم كبرياء المتفترسين ونزع اقنعة التعالين المتكبرين ، ليضع حدا لانانيتهم وتعاليمهم .

\*\*\*

ومن الشعر الانساني العميق الذي يصور جانبا من العواطف

فكاد يلقى به في جهنم ولكن بر والديه طفى على سيئاته ، فنجا من النار ، ثم جازاه الاله جزاء العباد الاتقياء ، فوضعه لينا من حوضن ابراهيم ، لكن شاعرنا تيرم وشكا الى ربه ، فهدأ روعه ، ووسده حوضه ، ثم قبله وضحه ، ولكن الشاعر عاد الى الشكوى من جديد فضج اهل الجنة ، وصاح الاله غضبا وساله عن سبب بكائه :

فصاح العفو يا مولاي من لي سواك ومن سوى الرحمن يرحم  
اتيتك راجيا نقلي لحضن احب الي من نفسي واكرم  
لحضن طالما قد نمت فيه قرير العين بين الضم والشم  
اما القيت راسك فوق صدر حنون خافق بمحبة الام  
فدعني من نعيم الخلد انسي نعيمي بين ذاك الصدر والضم  
تربتني كعادتها برفق وتشد ثم حبيبي بالهنا نس  
وهنا اطرق سيد الاكوان لشكوى الشاعر ، وعجب كيف لم يسر  
بهذا النعيم من قبل ، فضمم على اكتشاف هذا السر :

وكانت ليلة فاذا صبي صغير نائم في حوضن مريم  
لقد احدثت هذه القصيدة ضجة في عالم الادب حينما نشرت  
وترجمت الى لغات عديدة لانها تمثل العقيدة المسيحية من ناحية ولانها  
تصور عاطفة الامومة الانسانية من ناحية ثانية . .

\*\*\*

وننتقل الان الى لون جديدة من العواطف الانسانية ، تلك التي  
تصور مشاعر الاباء نحو الابناء ، واية عاطفة اكثر انسانية من عاطفة  
الابوة ؟ ان الاب ليرى ابناؤه زهرة حياته ، وثمره حبه ، وقره عينه  
ونفسه ، اذا مرضوا ود لو يفتدي حياتهم بحياته ، واذا حزونا حاول  
بشتى الطرائق ان يبدد احزانهم ويدخل السرور على قلوبهم ، واذا حلا  
النوم في عينيه ، فلا ينام الا وحلى ، وقد ينام قال الشاعر :

وانما اولادنا بيننا اكبانا تمشي على الارض  
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الفمض

ومن اجمل القصائد التي تصور هذه العاطفة الانسانية تصويرا  
رومانسيا دقيقا تلك التي نظمها الشاعر ( توفيق بربر ) في صغيرته  
( زيرا ) وهو اسم تصغير ( جيزالا ) ، تلطفنا وتحببا ، يقول فيها :

صغيرة بيتي وحببة قلبي وزهرة عيشي وثمره حبي  
وغرة وجهي ، وقره عينني وخمرة روحي وسكرة لبسي  
ومعنى وجودي وكنه خلودي وبيت قصيدي وآية ربسي

انها انغام موسيقية حنون تنبعث من قلب مفعم بالعاطفة الابوية  
الصادقة ، والمحبة العميقة تعبر ادق تعبير عما يكنه هذا الاب العاطفي  
والشاعر الرومانسي لابنته ( زيرا ) فيجعل القارئ ينقل معه ، ويشاركه  
احساسه . ولم يقف الشاعر عند هذا الحد ، بل راح يصور لنا  
قسماتها الدقيقة ، وصوتها اللبلي الرنان ، وما يشعر به من سعادة  
حينما تحوم حوله :

كان النسيم الحنون حباها ادق المعاني لتسبي وتصبي  
تزرق حولي فتشرق شمسي ويزهر قفري وتورق دربسي  
وتفدو الحياة سلاما وبسررا وان الحياة لحرب بحرب  
وعند ذلك لا يتمالك هذا الاب العطوف الا ان يعانق ابنته ويضمها  
الى صدره فيتراءى له انه يعانق بلاده وشعبه ، ثم تنام في حوضه ،  
فتهيم به الاحلام في اجواء فواحة بالعبور ، وعوالم زاخرة بالاماني ،  
فيرى نفسه اميرا يتسنى العرش ، وحوله الجوّاري رهن اشارته :

اشد عليها لصدري كاني اعانق فيها ببلادي وشعبي  
تمام بحضني فاحلم انسي نشرت لوائني بشرق وغرب  
وانسي امير وتحتني سرير وحولي اماء تنفذ رغبي  
وانسي استمدت شبابي وانسي اجتمعت بشملي وأهلي وصحبي  
فيا طيب انفاس ربحانة ترف بقلبي وعيني وهديبي  
وللشاعر ( عقل الجر ) قصيدة مشابهة لهذه في بعض معانيها، وفي  
جوها العاطفي العام يصور فيها عاطفة الام الفتونة بابنتها ، المظلة من  
خلاله على الفد الباسم ، يقول فيها :

الانسانية النبيلة ، ويتغنى بها غناء رومانسيا ، تلك القصائد التي قيلت  
في ( الامهات والابناء ) وقد يما لم يعرف الادب العربي شعرا في تقدير  
الامومة الا في القليل النادر ، وان كانت بعض القصائد التي صورت  
عاطفة الاباء نحو ابنائهم ، او الابناء نحو امهاتهم عن طريق الرناء فحسب .  
اما في عصرنا الحاضر ، فقد دخلت ادبنا العربي موضوعات جديدة ،  
تنهينا الى قسم كبير منها عن طريق اطلاقنا المباشر على الادب العربي ،  
او التآثر بمن تأثر به ونقل عنه . ولعل منها تلك الموضوعات التي تصور  
العواطف الانسانية الاجتماعية ، او التي يصح ان نسميها ( العلاقات  
الانسانية العاطفية ) .

وتطالما عند شعراء المهجر الجنوبي قصائد كثيرة قيلت في تمجيد  
( الام ) ، والاشادة بما لها من فضل على ابنائها خاصة ، وعلى الانسانية  
عمة ، فالام تبذل من عطفها وحنانها لابنائها دون ان تتربح عوضا ، او  
تنتظر اجرا ، وهي تشقى لشقايمهم وتسعد لسعادتهم ، وتسهر على  
راحتهم ، فهي ملاك الطهر والرحمة ، ومهما بذل الابناء من اجلها ، فلن  
يوفوا معشار ما لها في اعناقهم من دين .

ويلاحظ الباحث ان معظم هذه القصائد قيلت في امهات الشعراء  
بالذات ولكن بعضهم سميت عاطفته ونجرت ، فاستطاع ان يصور الام ،  
كل ام على وجه الارض فبلغ بذلك مرتبة انسانية رفيعة . ويروقتا هنا  
ان نعرض الى قصيدة ( الشلال ) للشاعر ( توفيق بربر ) التي اهداها  
الى الام في كل زمان ومكان ، وهي رائعة في معانيها ، وخاصة حينما  
يقارن بين الشلال المتدفق من اعالي الجبال ، وبين شلال الامومة والمحبة ،  
والعطف والحنان ، فيقول :

الا ايها الشلال ينصب من عل فينساب في عزم الشباب تهل  
فلست على هذي الفزارة كلها وانت الذي يزجي الجزيل باجزل  
كام اذا انكبت على نحر طفلها ترويه من ثمر الحنان بسلسل  
هنالك شلال من الحب ناطق باروع ايات الوجود واكمل  
على وجهها تطفو البشاشة والرضا كان الضحى في وجهها المتهلل  
انه تصوير جميل لعاطفة الحنان التي تعمر قلب كل ام ، ولكن  
الاجمل منه وقوف الشاعر عند صورة اخرى رائعة تمثل الامومة ذاتها ،  
صورة شدته وسمرته في مكانه ، فراح يرسمها لنا بقلمه الفني ، انها  
صورة الرضيع يمتص ثدي امه ، فينهل منه الحنان ، وهي تتسم له من  
النشوة والغبطة :

ولله منها وهو يمتص ثديها كما يحتسي المصفور من ماء منهل  
تهش له عن غبطة في كيانها تدب دبيب الخمر في كل مفصل  
اذا وسدته صدرها يا رؤى اخشي وفضي وقارا يا قرانج واخجلي  
ويا زهر خري من سمانك واسجدي وذوي النياح يا عواطف واشعلي  
الى ان يقول :

الا ان قلب الام ينبوع رحمة يلين له الجلود والليل ينجلي  
وهل غير قلب الام يعطيك شاكرا ويزجي عطايه بـروح التوسل  
ثم يلتفت نظر الناس حوله الى واجب الاحتفاء بالام والاشادة  
بفضلها ومكانتها :

فلو زينوا الجدران طرا برسمها واحبوا لها الاعياد في كل محفل  
وشادوا لها الانصاب في كل ساحة وصلوا لها كاله في كل هيكل  
يمينا لما وفي الامومة حقها عليهم ومن يبذل لها النفس ينجل  
فان لها ديننا على الناس كلهم وليس الذي يرعى الجميل كمهم  
فلا حب الا حبا فهو ثابت فلم ينحرف يوما ولم يتحول  
وفي ديوان ( الشاعر القروي ) اربع قصائد تصور ينبوع العطف  
والحنان ، لعل اروعها قصيدته ( حوضن الام ) التي يقص علينا فيها  
اسطورة حشوها العقيدة المسيحية التي ترى ان المسيح هو ( ابن الله ) ،  
وخلصنا : ان اله موسى كان قاسيا يلتذ برؤية الدم ، ثم غدا ليسن  
القلب حنونا ، فكيف كان ذلك ؟

روى الراويون انهم عثروا في مصر على درج غريب الخط ، فحاول  
العلماء فك رموزه ، ولكنه بدا لهم طلسم ، ثم جيء بشاعر ليقراه فاذا  
به : ان شاعرا ملهما قبل عيسى توفي في الشرق ، وكان عاصيا لربه ،

الدير ، فترأى له ان وراءها حبيبا قد غدر بها ، فلم تجد دواء لصدمتها العاطفية هذه سوى ان تهب نفسها لربها . وبينما كانت تسير على مهلها لتجمع ضمة من الزهر تهديها للسيد المسيح فادي الوري :

رأت زهرة في اعالي الجدار فاعجبها شكلها المستطيل ولون كقوس السحاب زها وقد زاد في حسنها انها فحرك منظرها نفسها اخية يهنيك هذا سمو ولكن اما كان اشهى لديك تحوم عليك بنات القفير وتسمعك الطير انشادها لاننت تعيشين في عزلة لمن خلق الله هذا الجمال

ثم غامت الدنيا في عيني الراهبة ، ففقلت راجعة الى الدير ، وقد ملأت نفسها الهواجس ، وحرك قلبها لهيب الذكريات ، وكأنها تمثلت في هذه الزهرة النائية السامقة صورة لنفسها ... وارخى الليل سدوله على هذه الراهبة :

ولما نصت ثوبها لتنام فمدت الى صدرها كفها وقال لها قائل صامت وانت تعيشين في عزلة لمن خلق الله هذا الجمال

بهذا التحليل النفسي العميق ، اضى ( الياس فرحات ) نفسية الراهبة على هذه الزهرة التي شابهتها في جمالها ورفعتها وامتناعها على من يريد اقتطاعها ، وهذا التحليل الانساني الرفيع زاد القصيدة رونقا رونقا وبهاء ، لا اشاع فيها من اجواء رومانسية عميقة ، وتصوير عاطفي جميل ..



تلك هي جوانب متفرقة من النزعة الانسانية في شعر المهجر الجنوبي ، تجلت لنا في قصائد متعددة ، زاخرة ببعض العواطف الانسانية السامية يجمع بينها كلها فكرة التعاطف والتوافق مع بني البشرية . ولقد حاول بعض شعراء المهجر الجنوبي ان يعالجوا قضايا الانسان عامة ، فتنساءلوا عن كنهه : من هو ؟ من اين جاء ؟ الى اين سينتهي ؟ ما غايته من الكون ؟ الى غير ذلك من الاسئلة العديدة التي كنا نحب ان نعرض لها ، لولا ضيق الوقت .

وصفوة القول : لقد تجلت هذه الجوانب الانسانية الرومانسية في الدعوة الى المحبة الخالصة لكل الناس ، ولكل ما في الوجود ، دعوة عميقة اتخذت غاية لذاتها وهدفا ، وكذلك كانت الدعوة الى الجسود والبذل والاحسان ، لانها فضيلة من الفضائل النفسية الانسانية ، وقد اصطنعوا لهذه الدعوة اساليب متعددة - كما رأينا - منها التقريبي المباشر ، ومنها القصصي ومنها التصويري . ولجا بعضهم الى المقارنة بين الطبيعة والانسان . والجدير بالذكر انهم في معظم قصائدهم هذه بدا تاثيرهم واضحا بتعاليم الانجيل ، وبروح العقيدة المسيحية . اما تصوير الشاعر والعواطف نحو الامهات والابناء او ما سميناهم (العلاقات الانسانية العاطفية) فقد سلكوا في التعبير عنها كذلك مسالك متعددة ، ولكنهم جميعا استطاعوا برهافة مشاعرهم ، وصدق عواطفهم ، وبأسلوبهم الفني الرفيع ان يصوروا هذه العواطف المقدسة تصويرا جميلا مؤثرا ، وظلوا يعبرون بطريقة عاطفية ، ويدورون في فلك الرومانسية الغالبة التي كانت نواة صالحة لكل ما زرعه في الحقل الانساني الخصب ..

عزيزة مريلن

القاهرة

اعطيته كالصبح غمرته ملكا تقمص صورة الولد ازهو بطلعته واحسبه الكون جمع كله بيدي واطل منه على غد لامت اماله في مفرق الابد ثم يرسم لنا صورة عفوية ، اذ يطيف الولد بامه ويشدو حولها تارة ، ويداعبها تارة اخرى منشبا يده في عينها ونحرها ، والام مستسلمة سعيدة ، تقبل ابنها ، ونضمه بخنان الى صدرها حتى لنكاد ترجمه الى كبدها :

تهناجني من فيه زقزقة تزري بصوت البلبل الفرد ويهف نحوي منشبا يده في العين او في النحر والعضد فازقه قبلي وارققه واكاد ارجعه الى كبدي

واذا عرفنا ان هذه القصيدة صدرت كلها عن خيال الشاعر اذ لم يجرب الابوة قط فقد عاش عزبا طوال حياته ، اكبرنا فيه دقة التصوير ، وازدنا اعجابا بقدرته على التخيل والتمثيل .

وللشاعر ( جورج صيدح ) قصائد عديدة تصور عواطف الابوة الصادقة ، نجدها في قسم خاص من ديوانه ، اطلق عليه اسم (اكباد) ليبدل بذلك على مشاعره نحو وجيدته وابنائها . ومنها قصيدة نظمها في عيد ميلاد ( جاكين ) التي ولدت في ( فنزويلا ) من ام فرنسية ، واب عربي دمشقي ، يقول فيها :

نشأت بين جفون الياسمين زهرة في الروض تسبي الناظرين عبتت باريز في اكمامها ودمشق الشام في العرق الوتين فلذة للشرق والغرب سرت ( للفرنزويلا ) بها الروح الامين

ثم صور لنا نظرة الاب الراضية التي تآبى الا ان تجعلها ممتازة عن سائر بنات جنسها بالجمال الكامل :

اتراها خيرت في خلقها فانت كاملة الحسن البين ام براها الله من ذوي السنا وبنات الناس من ماء وطن قد عبتت الله في صورتها وارفضيت الكفر كفر المؤمنين

وتشاء الافدار ان تصاب ابنته في صفرها بمرض تدخل على اثره المستشفى لتجري لها عملية جراحية ، وعند ذاك يتحطم قلب الوالد هلعا وجزعا ، ويتجلى شعوره الانساني العميق في قصيدة افرغ فيها ذوب عواطفه الابوية وقلقه وحزنه فقال :

رفقا بها يا مبضع الجراح شرحت قلب الوالد المتلاح والله لو اطلقت روحي لارتمت تحت النصال تصدها بجراحي ماذا جنت وهي الفطيمة في الربى واليوم تشهد مديّة الذبّاح

بلا مس مدت عنقها من كنها غبن النضارة اخذه بالراح وبغير شم عييره الفواح ما لي اراه على الخوان ممددا واكاد التّم انمل الجراح ويحي دفعت الى المشارك فلذة كنت الضنين بها على اليرايح

ولا ريب ان الصور الفنية الحية ، هي التي اضفت على القصيدة الرونق والعدوبة وعمقت احساسنا بالنبرة الرومانسية الانسانية . ويمكننا ان نلحق بهذا القسم من العواطف ، الشعور بالتوافق والتعاطف مع بعض افراد الناس ، شعورا لا يرقى الى دعوة اجتماعية محددة ، ولكنه مجرد شعور عاطفي رومانسي ، للشاعر ( الياس فرحات ) قصيدة انسانية فريدة من نوعها ، نقرأها فنحس بالشعور الانساني يهلا ارجاءها ، وندقق في معانيها ، فيضوع كل معنى فيها بنفحة انسانية ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان نضع اصبعنا على بيت معين او مقطع محدد تركزت فيه هذه العاطفة .

وتدور القصيدة حول قصة ( الراهبة ) احدى الراهبات ، اطلت من الدير في ضحى يوم مشرق ، وقد بدت على وجهها علائم اليأس ، انها فتاة يخلب حسنها الالباب ، وان علا وجهها شحوب ظاهر ، رغم انها ما تزال في ربيع العمر . وحاول الشاعر ان ينفذ ببصيرته الى اعماق نفسها ، ويخترق حجب الغيب ليعرف علة وجودها ، في ذلك